الباب الثالث

الاستبداد ... النفسية والثقافة والآليات

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

نفسية المستبد

دخلت ذات يوم مبنى مباحث أمن الدولة بطنطا، إثر طلب تلقيته بضرورة المثول أمام ضباط الفرع، وحينما دخلت من البوابة الرئيسية أدخلوني حجرة انتظار ملاصقة للبوابة الرئيسية وتجعلني أسمع كل ما يقال على البوابة.

لا يرى الجالس في الحجرة وجه الداخل من البوابة ولكن يراه من الخلف بعد أن يمر، اللهم إلا إذا التفت الداخل فإن الجالس يرى وجهه. جلست في هذه الحجرة قرابة الساعتين في انتظار السماح لي بمقابلة الضابط الذي طلبني، وفجأة سمعت صوت ارتطام قاعدة السلاح في يد جندي حراسة البوابة بالأرض نتيجة لتأدية التحية العسكرية، مصحوبة بكلمة «انتباه» شديدة الطول وهي تخرج من فم الجندي، معلنة وصول أحد الضباط.

كانت التحية شديدة الطول ومبالغًا فيها بشكل أثار استيائي، ولحسن الحظ فإن الضابط الصغير الذي تلقى هذه التحية التفت فرأيت وجهه، كان صغير السن، ولحسن الحظ فإنني حينما دخلت لمقابلة المقدم الذي طلبني كان هذا الضابط الصغير يجلس على مكتب مجاور في نفس الغرفة، وعرفت من «اللافتة» الموضوعة على مكتبه أنه «نقيب».

عرفت حينها أن التحية التي تلقاها على البوابة ستكون أول درجات سلم صياغته النفسية، فحتى لو كان إنسانًا جيدًا، فإن سحر ومفعول هذا التقديس اليومي المستمر لا بد أن يؤتي أكله، فيومًا بعد يوم تنتفخ أوداج هذا الضابط الصغير ولا يرضى بغير هذه المعاملة بديلاً.

فلابد من تحيته تحية خاصة، ولا بد من احترامه بشكل خاص أكبر من الناس، ولا بد من مخاطبته بـ«يا باشا»، ولا بد من عدم مقاطعته أو مناقشته فيما يقول، فما يقوله هو عين الحق وعنوان الحقيقة، وبالتالي فلا مجال سوى السمع والطاعة وتنفيذ ما يقول، ويا ويله من يحاول الدخول معه في نقاش وحوار.

في هذا اليوم أدركت أن صياغة نفسية المستبد تبدأ من هنا، من معاملة تصل إلى التأليه، ومن طأطأة الرأس أثناء الحديث معه.

وكان الفنان الراحل أحمد زكي متميزًا ومعبرًا عن شخصية ضابط أمن الدولة في فيلم «زوجة رجل مهم»، وعبرت الشخصية عن حالة «الانتفاخ والتورم في الذات» التي يعاني منها الضابط الصغير، وقياسًا عليه كل قيادي تم وضع قدميه على أول طريق الاستبداد، فهو لا ينتظر من السائق والبواب والخادم والبائع ورجل الشارع والمواطن العادي في كل مكان يوجد فيه إلا أن يعامله معاملة تختلف عن باقي البشر، فهو مقدم على الناس، ولا يجوز الرد عليه ومناقشته، وهو الذي يحدد سعر السلعة التي يشتريها، وإذا رفض أن يدفع ثمنها فهذا تقضل منه، فمثله لا يسأل عن الثمن.

أما علاقة جيرانه به وبزوجته وبأولاده فيجب أن تكون على نفس الدرجة، ويا ويله لو رأى جارًا لا تعجبه سحنته، أو لو أن أولاده الصغار لعبوا مع ابن «الباشا» بطريقة لم تعجبه فبكى، أو لو أن صاحب العمارة تجرأ وطالبه بما يطالب به الناس.

بل إن حماه وحماته وأصهاره يجب أن يعاملوه كملك لا يخطئ، فلو اشتكت ابنتهم التي هي زوجته، فإنها لا بد أن تكون هي المخطئة وليس هو، وممنوع انتقاده بأي نوع من أنواع النقد، ولو تجرأ أبو الزوجة ودافع عن ابنته فإن مصيره معروف وهو رصاصة من السلاح الميري تستقر في رأسه وتنهي حياته، كما حدث في الفيلم.

وليس طريق الاستبداد الطويل خاصًا فقط بضباط الشرطة، وإنما ينسحب على كل المراكز القيادية والوظائف المهمة، التي يدرك أصحابها أنها تتيح لهم التحكم في

الناس وفي مصائرهم.

وقد أفزعني أن أدخل مكتب تراخيص السفر في طنطا أيضًا فأجد زحامًا شديدًا وأرى موظفًا مدنيًّا عاديًّا غير قيادي، إذا سأله فلاح شاب من راغبي السفر عن أمر معطيًا له جواز سفره، فإنه يأخذ جواز السفر ويقذفه في وجهه، بل إني رأيته وقد قذف أكثر من جواز سفر في الطابق الأسفل.

لقد قرر هذا الموظف الصغير، حينما رأى الازدحام عليه، والأسئلة موجهة إليه، أن يعتبر نفسه ذا شأن، فاختار طريق الغطرسة والاستبداد ليعلن عن نفسه، فكانت الخطوة الأولى منه في هذه التصرفات الحقيرة والحمقاء، وما أكد نهج الاستبداد لديه أنه لم ير واحدًا قط من الناس يردعه ويقول له: «قف مكانك والزم حدودك»، فتمادى في غيه وجبروته.

والاستبداد لا يصنع في بيوتنا ومدارسنا وجامعاتنا ومؤسساتنا الاجتماعية والسياسية إلا بهذا الأسلوب، غطرسة وسوء أدب واستبداد ومعاملة خاطئة وغير قانونية، يقابلها الناس بالسكوت والخوف، فتكون النتيجة هي استمرار المستبد في استبداده وتماديه في هذا الاستبداد. وهو نفس ما تفعله الزوجة حينما تتحول إلى مستبدة باحتلال مساحة جديدة من أرض الزوج بالتدريج وهو لا يعترض، وكذلك يتحول الزوج إلى مستبد بهذه الطريقة حتى يحول الزوجة إلى قطعة أثاث لا قيمة لها، والمسكينة تتركه سنوات طويلة ليستفحل استبداده ثم تشتكي بعد أن يكون قد أجهز عليها، ولو قاومته من أول يوم لارتدع ولما جرؤ أن يعتدي على حقوقها فيضربها ويغتصب ميراثها وينزع من يدها أية مشاركة فاعلة في شأن أولادها وأسرتها.

وما اختزلته تلك الزوجة البائسة التي قرأت قصتها في الصحيفة كان موجعًا ومعبرًا عن قدر الاستبداد الذي تحملته وعانت منه ولم تعترض عليه، فبعد انتهاء حفل زفاف صغرى بناتها، وبعد أن عادت مع زوجها إلى منزلها الذي يعيشان فيه منذ زواجهما

الذي تم من أربعين عامًا، طلبت منه الطلاق وأصرت عليه، فهي كرهته كرهًا شديدًا لاستبداده وجبروته، لكنها تحملت من أجل أبنائها، فهم صغار وهي لا تعمل ولا بد من نفقة، ثم هي تخشى حينما يأتي يوم الزواج أن يكون طلاقها من زوجها عائقًا أمام زواج الأبناء. ولذلك فإنها صبرت كل هذه السنوات الطويلة حتى أنهت مسئوليتها تجاه أبنائها فقررت أن تنهي علاقتها بهذا المستبد الطاغية الجبار.

المستبد يقوم أولاً بالفعل ثم يحدد الخطوة التالية حسب رد فعل الضحية وهم جماهير شعبه. تقدم وفد من أعيان البلدة لمقابلة زعيم عربي وهم متذمرون للتقدم بشكوى ضد بعض المظالم، سمع الزعيم بخبر مقدمهم فجهز نفسه بمسرحية، وعندما دخلوا مكتبه كان يتحدث بالهاتف، يبدو أن الزعيم لم يكن في أفضل حال، فبدأ يرتفع صوته ثم نطق بجملة مخيفة: أنا آمرك أن تأخذه فورًا إلى ساحة الإعدام ولا ترجع بدون تنفيذ ذلك.

نظر الرهط القادم في وجه بعضهم بعضًا وقد امتقعت سحناتهم رعبًا، التفت إليهم «الزعيم» مبتسمًا وقال: تفضلوا خيرًا إن شاء الله، ما الذي أستطيع أن أقدمه لكم؟ صاح الوفد بصوت رجل واحد: أيها الزعيم نحن جئنا فقط لنتشرف بمقابلتك ونهنئك على إنجازاتك. قال: قد أديتم الأمانة فانصرفوا إلى أهلكم راشدين.

يقول من كتب المذكرات وكان شاهدًا لهذه الواقعة: إن الزعيم بعد انصرافهم انفجر بالضحك وقال: شعب من هذا الطراز يناسبه زعيم من طرازي.

إن مدرسة علم النفس السلوكي ترى أنه كلما أظهر الأتباع المزيد من الخضوع عزَّزوا مشاعر السيطرة عند القادة، وفي مسرحيات احتفالات العظماء يلاحظ المتأمل كيفية ولادة هذا المستبد، من توجيه ألفاظ التعظيم وأنه المتفضل المنعم الواهب الرزَّاق ذو القوة المتين، كل الالتفاتات إليه وكل الإيماءات نحوه، وعند استعراض المحطات الفضائية في لقاء يضم مجموعة من الزعماء تكاد لا تشعر من كل محطة بوجود أحد

سوى رئيسها وأن الآخرين نكرات مهملة، ويستمر التلفزيون المحلي في تسليط الكاميرا على الزعيم من كل الزوايا، وبين الحين والآخر تعرض صوره على المشاهدين في وجه ملائكي يفيض بالسماحة والاقتدار تحيط به هالة القديسين.

الشعوب إذن هي التي تصنع الطواغيت كما تصنع خلية النحل ملكتها من أصغر العاملات، كل ما تحتاجه حتى تصبح ملكة هو تغذيتها برحيق خاص، وفي عالم البشر يمكن لأي مغامر من أمة مريضة أن يقفز على ظهر حصان عسكري إلى مركز الصدارة والتأله.

كل ما يحتاجه أمران: عدم التورع عن سفك الدم، وتجنيد الأتباع بغير حساب وضمير.

إذا أرادت الشعوب رؤية وجهها في مرآة تاريخية فليس عليها سوى أن تحدق في سحنة حكامها، وقياداتها السياسية، فسوف تجد أنها أفضل قميص مناسب لشعوب خيط عند أبرع خياط تتسربل به[1].

في السيرة الذاتية لهتلر التي كتبها «إيان كيرشوف» يرسم الرجل الصورة اسريالية لمفاصل القوة؛ فالرجل كما وصفه «برتراند راسل» في كتابه «السلطان» عندما يصف علاقات القادة والأتباع، أنه كان أقرب إلى القديسين من الانتهازيين، ومنذ عام ١٩٣٣م بدأ يتقمصه «شيطان القوة» وبقدر مظاهر التملق والخضوع من الحاشية المحيطة به بقدر ما استولى عليه الشعور أنه القائد الملهم الأبدي المعصوم الذي سيحكم الرايخ الثالث لألف سنة قادمة. هكذا كان يزعق في الجماهير يوميًّا.

بعد أشهر من وضع «هتلر» يده على مفاتيح القوة، تغيرت تصرفاته كليًّا وبدأ يقع تحت سيطرة فكرة أن العناية الإلهية أرسلته لإنقاذ الشعب الألماني.

يقول مالك بن نبي عن هذا الشعور: «إن الشعوب تقع تحت سحر من هذا النوع

(١) خالص جلبي، سيكولوجية الطغاة، موقع الوحدة الإسلامية، ١١ نوفمبر ٢٠٠٤م.

في الأزمات التاريخية فتوظفها قيادات ذكية وخبيثة لحسابها، وتتحرك الجماهير العمياء تحت أحد شعورين «الإنقاذ» أو «روح الرسالة».

إن هذه «الحلاوة» المسكرة من الثناء والتبجيل والكذب لا يستطيع الحكام ـ وهم من البشر ـ أن ينجوا من سحرها، فلا تسكر النفس بخمر كالثناء. وكان هتلر ينظر إلى كل من حوله مثل جحا الذي كان يقف على رأس جبل فيقول في نفسه: لم أكن أتصور الناس صغارًا بهذا الحجم، بفارق أن هتلر كان يحدق من جبال بيرشتسغادن «عش النسر» في جبال النمسا.

وفي النهاية بدأ هتلر يستخف بكل من سبقه وحتى «بسمارك» لم يعد أمامه شيئًا مذكورًا. لقد كان هتلر يتجرع أفيون القوة بدون توقف، ومع كل إدمان يزداد مقدار الجرعة كما هو حاصل في عالم الإدمان، ليستفحل المرض ويزداد. وفي قلوبهم مرض فزادهم الله مرضًا[1].

لقد قام «يورج فيرتجنس» من شركة «شنابس بيرشتاين» في برنامج تدريبي لمدة ثلاث سنوات لدراسة هذه الظاهرة المرضية في علاقات القوة فوصل إلى ثلاث نتائج مذهلة:

أولاً: ثلث القياديين على الأقل الذين يقفزون إلى منصات القرار هم من النوع الذي يفتقد الحس القيادي ووصولهم إلى المركز القيادي خاضع لظروف لا تعتمد «الكفاءة» بقدر «الولاء» وهم من أخبث الأنواع قاطبة وأخطرها.

وتتبدل شخصية هؤلاء مع الجلوس على عرش القرارات على نحو وصفي فيكونون من أسوء أنواع المديرين ويتميزون بما لا يقل عن ١٦ صفة قيادية فاسدة مثل: مظاهر الاستعراض، وتقريب المهملين، وتضييع الوقت في برامج غير مجدية، والحفاظ على مظاهر الأبهة في المكتب بجانب السكرتيرة الجميلة، وحشر الأنف في

(١) المرجع السابق.

كل صغيرة وكبيرة، والانفجار بالزعيق على مخالفات لا تستحق، وتحطيم كل نفس كريمة؛ فيجب على الجميع أن يسارعوا إلى الولاء وإظهار صنوف الزلفى، وأن يكونوا جاهزين على مدار الساعة لتقديم «التقارير» في حق زملائهم.

ثانيًا: يوحي إلى الزعيم من حوله زخرف القول غرورًا أن الأمور في أحسن أحوالها، وأن كل شيء تحت السيطرة؛ فلا يسجلون إلا الانتصارات ولا يظهرون إلا عظمة القائد الذي لا يخطئ. وأما المصائب فلا يتم الإخبار عنها إلا بعد أن لا يبقي بدٌّ من الإعلان عنها مثل القدم السكرية المتعفنة التي تفوح رائحتها ولا ينفع فيها إلا البتر. وجرت سنة الله في خلقه أن هذا عندما يحدث يكون متأخرًا جدًّا حيث لا ينفع الترميم، مثل كسر الزجاج الذي لا ينفع فيه التجبير. وعندها تكون السفينة في طريقها إلى قاع المحيط بأسرع من غرق التيتانيك.

ثالثًا: عندما تغرق السفينة تهرب الجرذان. هكذا تبرأ «فون باولوس» قائد الجيش السادس من معلمه «هتلر» بعد أن استسلم للروس ولم يبق من جيشه الذي بلغ ٣٦٠ ألف مقاتل سوى تسعين ألفًا. وهكذا خطط «هملر» رئيس الاستخبارات العسكرية «الجستابو» والحرس الخاص «SS» للانقضاض على السلطة في الرايخ وبدأ يتفاوض مع الحلفاء سرًّا مع نهاية هتلر مع أنه لم يبق شيء من الرايخ. وعندما تسلل لواذًا شقيق «إيفا براون» عشيقة هتلر من القاعدة تحت أرضية حيث اختبأ «الفوهرر» في أيامه الأخيرة أمر هتلر بمحاكمته وإعدامه في لحظات. وهكذا مات لمشير «عامر» منتحرًا أو منحورًا بعد طول صحبة وعظيم الخدمات. والإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين.

ولكن لماذا يحب أحدنا أن يحاط بالمتملقين الذين يركعون له ويسجدون؟ ولماذا كل هذا العناء لشق هذا الطريق بين صراع «التراتبية» وكسب العداوات بدون توقف؟ وما هو الشيء المغري الذي يدعو إلى اعتلاء القمة؟ ما هي هذه الحلاوة

التي لا يقاوم إغراؤها.

للإجابة على هذا السؤال دخل على الخط علماء البيولوجيا ليخلصوا بنتيجة سيئة عن طبيعة الإنسان: «إنه يولد ليس بعطش إلى القوة بل بميل إلى سوء استخدام السلطة» أي أن السلطة تفسد الإنسان مهما كان ودان.

وهذا يعطي الإشارة الحمراء لمن يتفاءل بالقدرة الأخلاقية عند بعض الأفراد الذين يصلون إلى سدة المسئولية أنهم نزيهون وبالتالي سوف تنصلح الأمور مع قدومهم بضربة ساحر، حتى لو كان في بلد وصل العفن فيها إلى قمم الغمام بما يذكر بهلوسة مدمني المخدرات. ويفوتهم أن الوسط عندما يمرض فلن يرفعه صلاح صالح أو استقامة عادل.

يقول «بروس شارلتون » الباحث في علوم التطور من جامعة «نيو كاستل»: إن طبيعة البشر تحمل الميل للمغالبة والقهر. أما الإنثروبولوجي «كريستوفر بوم » من جامعة «جنوب كاليفورنيا» فيعزي هذا إلى أننا «مازلنا نحمل هذا التنافس العدواني من أسلافنا». وفي عالم البيولوجيا يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من الجماعات:

قرود الريزوس والشمبانزي والمجتمع الإنساني. مجتمع قرود الريزوس تعيش في تراتبية خاصة حيث يسيطر الذكر الأقوى، في حين أن مجتمعات الشمبانزي تطور عندها نظام اجتماعي معقد في آلية متبادلة من الانضباط، والرئيس الذي له حظوظ البقاء هو من يخدم مصالح الجماعة أكثر فتعترف له الجماعة وتنقاد. ويفترض «فرانس دي فال » أن هناك ما يشبه العقد الاجتماعي البدائي في جماعة الشمبانزي.

أما في بني البشر فتمضي السيطرة الاجتماعية إلى أبعد، وفي النسيج المتضافر المعقد في علاقات القوة في المجتمعات الديمقراطية الحديثة لا يمكن لأحد أن يعلو إلى مستوى القوة غير المحدودة وغير المنضبطة.

وهكذا فإن النظام هو الذي يفرز الأقوياء والضعفاء ويسلب الملك من الجبارين

ويمنحه للذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين. وهذا خاضع لسنة الله في خلقه فيؤتي الملك من يشاء[1].

وقد كتب كثير من علماء النفس والاجتماعيات بحوثًا ودراسات عن نفسية الطغاة، والأسباب التي تجعل من حاكم ما طاغوتًا ضاريًا.. وأغلب هذه الدراسات - إن لم يكن كلها - تعتبر دراسات ميدانية تستخلص تنظيراتها وقواعدها من شخصيات الطغاة قديمًا وحديثًا. من هنا جاءت هذه المباحث على حظ كبير من المصداقية.

وناقشت هذه الدراسات الأسباب والعوامل التي تجعل من الإنسان طاغية. ووصلوا إلى أنه من الصعب - بل من المستحيل - تعليل ظاهرة «الطغيان» بعامل واحد، أو علة واحدة. إنما ترجع إلى عدد من العوامل المتشابكة، المعقدة، ولكنها تتفاوت في التأثير والتوجيه.

فهناك الطاغية الذي صنعته طريقة التربية الخاطئة فعاش طفولة قاسية، مطحونًا بظلم الأهل والأبوين، فينشأ مسكونًا بالتطلع إلى الانتقام الذي تغذيه عقدة الشعور بالاضطهاد، فإذا ما جاءته فرصة الحكم، تحكم وظلم، وقصف أعناق العباد، ووجد في ذلك متعة، ولذة تعوضه عن عذابات الطفولة ومرارة الماضي.

وقد يولد الطاغية مسكونًا بعقدة العظمة أو التعاظم، مما يدفعه لبناء مجده الشخصي بأي ثمن، وبأي حساب، ولو جاء في صورة ممسوخة شاذة مشوهة، وفي سبيل إشباع هذه الشهوة العارمة، فلتهلك الأمة عن جهل، أو عن بينة، المهم أن يصعد.. ويصعد.. ويعلو.. ولو على جبل من الجماجم. وتبلغ النرجسية بالطاغية - في هذه الحال - إلى درجة عبادة النفس وتوثين الذات، كما أعلن فرعون في قومه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

ومن أهم عوامل «تخليق» الطاغية: غفلة الأمة، وتراخيها، وضعف إحساسها

(١) المرجع السابق.

بذاتها، وانعدام تقديرها للمسئولية، فما كان الحاكم ليستبد إلا بأمة تملك «قابلية الخضوع والخنوع والاستسلام» حتى ترى من الظلم ألا تُظلم ومن الضيم ألا تُضام.

وقد تمثل هذه الطبيعة «الجانب السلبي» في أخلاقيات هذه الأمة، ولكن ثمة طباع وسلوكيات ناشطة لها أثرها الأبلغ والأعمق في تخليق الطاغية، وتماديه في الطغيان، وتماديه في التمادي، وذلك حينما نرى الأمة تؤيد الطاغية، وتحتفي به، وتمجد أخطاءه على أنها فتح مبين في عالم الحكمة والسياسة، والنهوض والتقدم، ويصبح النفاق في حياتها دينًا وديدنًا. وذلك للتقرب من الطاغية، والانتفاع بجواره، والأكل على مائدته، ولو كان فتاتًا مغموسًا في ماء الذلة والهوان.

وقد عرض «ديورانت» في كتابه «قصة الحضارة» كيف أن نفاق الشعب هو الذي جعل من «نيرون» طاغية، مع أن نيرون - كما قال عنه أستاذه الفيلسوف سنكا : كان طالبًا مجدًّا، وكان في بداية عهده رقيق النفس، رحيم القلب، شفوقًا على الرعية، حتى إنه - لما طُلب إليه مرة أن يوقع وثيقة بإدانة أحد المجرمين - قال في حسرة: «ليتني لم أتعلم قط الكتابة». وقد خفّض الضرائب الباهظة، أو ألغاها إلغاء تامًا. وخصص معاشات دائمة للشيوخ المعوزين. ثم جاءت بطانة السوء، فنافقته، واستشرى النفاق في الشعب كله حتى وثّنوه وألهوه، ومسخوا طبيعته السوية النقية.

وأهم هذه العوامل جميعًا «الكفر بالله»، ومنازعته سلطانه، وهذا الكفر يترتب عليه إنكار الطاغية اليوم الآخر، وما فيه من ثواب وعقاب، أي أنه يعتبر نفسه القوة العلوية الوحيدة، فمن حقه أن يعربد كما يشاء، ويستبيح الدماء والأعراض والأموال كما يريد[1].

وأخيرًا فإن المستبد الطاغية لا يرى إلا نفسه ولا يسمع إلا صوته ولا يهتم إلا لمصالحه، فالطغاة وهم في أوج طغيانهم يمتلكهم الغرور والاستعلاء ولا يتعظون

(١) د. جابر قميحة، الطاغية والطغيان و«جهاز الأوتاد»، إسلام ويب، ١٧/ ٠٥/ ٢٠٠٩م.

من دروس التاريخ ومن مصائر أمثالهم ممن سبقوهم من أصنام الطغاة والبغاة الذين أفسدوا وعاثوا في الأرض، فكانت نهايتهم أليمة ومريرة، لم تنفعهم قوتهم وسطوتهم وجبروتهم. فالطغاة عندما يتمردون ويتكبرون فإنما يهلكون أنفسهم بأنفسهم، ومن سنة الله مع الطغاة أنه يمهلهم في غيهم وطغيانهم فيستدرجهم ليزدادوا إثما فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر. إنها سنة الله في الطغاة ولكن لا يدرك هذا إلا من اعتبر واتعظ من دروس التاريخ.

والطغاة والمستبدون يتنوعون حسب الظروف المحيطة بهم وحسب تركيبة شعوبهم، وقد يتمثل الاستبداد في شخصية مستبد متهور غاشم، أو في حزب وحيد يترض نفسه على الشعب، ومع زخم التطور الذي يشهده العالم في حاضرنا في جميع المجالات تطورت أساليب المستبدين لمغالطة الشعوب، فأصبحوا يسمحون بتشكيل أحزاب ديكورية لا يسمح لها بأبسط حقوقها في التعبير أو ألمطالبه أو المشاركة أو المساهمة فيما هو واجب عليها، وبرلمانات الأكثرية فيها توابع للأنظمة الدكتاتورية[1].

وفي النهاية، فإن النفس الطاغية لا بد أن تكون فقيرة هزيلة يستبد بها الرعب، وتعاني الآلام، والشكوى والتذمر، ففقيرة هي النفس التي تنظر إلى باطنها فتجد خواءً، فتمتد إلى خارجها لتقتني ما يسد هذا الخواء، فتتصيد أناسًا آخرين ذوي نفوس أخرى لتخضعهم لسلطانها. وهكذا فإن مصدر طغيان واستبداد المستبد هو فقر نفسه، لأن المكتفي بنفسه لا يطغى ولا يستبد، ومن يشعر في نفسه بثقة واطمئنان فليس في حاجة إلى دعم من سواه[2].

كما أن الطاغية الحقيقي هو في واقع الأمر وعلى خلاف ما يظن الناس «عبد» بالمعنى الصحيح، بل هو شخص بلغ أقصى درجات العبودية، ما دامت دوافعه

(١) أحمد علي عولقي، صناعة الطغاة، موقع البديل، ٤/ ١٢/ ٢٠٠٩م.

(٢) زكي نجيب محمود، الكوميديا الأرضية، دار الشروق، صفحة ٧٧.

الحيوانية هي التي تسيطر عليه وتدفعه على تملق الناس. إننا نقصد هنا العبودية السلبية وليس العبودية الإيجابية لله الواحد الأحد.

وهو يقضي حياته في خوف مستمر، ويعاني على الدوام آلامًا مرهقة، ويبدو أكثر الناس بؤسًا، وفيه شر آخر وهو أن السلطة تنمي كل مساوئه، وتجعله أشد حسدًا وغدرًا وظلمًا، وأقل أصدقاءً، وأشد فجورًا، وأمعن في احتضان كل الرذائل، وهذا كله يجعله أتعس الناس[1].

(١) أفلاطون، الجمهورية، الترجمة العربية، صفحة ٥٦.

الفصل الثاني

ثقافة المستبد

لا نستطيع أن ندعي أن الاستبداد وثقافة الاستبداد ظاهرة عالمية وأن بلادنا العربية جزء من هذه الظاهرة، فهذا الكلام يحتوي على مغالطات، فكون ظاهرة الاستبداد عالمية فهذا صحيح، لكن الصحيح أيضًا أنها لم تكن متجذرة كل هذا التجذر الموجود في بلادنا العربية، فقد استطاعت كثير من شعوب العالم أن تضع حدًّا للاستبداد وأن تنتصر عليه.

تأليه الحاكم لم يكن قصرًا على مصر الفرعونية، ولم تكن ثقافة الاستبداد قصرًا على المصريين، فقد كانت السلطة السياسية في «بابل» تستند باستمرار إلى مصدر إلهي، فقد هبط النظام الملكي من السماء، والملك هو «حاكم المدينة» وهو «الكاهن الأعظم» وهو «نائب الآلهة ومندوبها»، وكان ملوك بابل لا يفتأون يذّكرون الناس باختيار الآلهة لهم.

أما في «فارس» فقد كان الفرس يطلقون على الإمبراطور لقب «ملك الملوك»، وكان هو صاحب السلطة المطلقة في طول البلاد وعرضها، والكلمة التي تصدر منه كافية لإعدام من يشاء من غير محاكمة ولا بيان للأسباب. وعندما غزا الإسكندر فارس وجد الناس يسجدون للإمبراطور ويؤلهونه.

وفي «الصين» كان التنظيم السياسي يقوم على أساس أن الإمبراطور يستمد سلطته من السماء، فهو يحكم وفقًا للحق الإلهي الذي يخوله سلطة مطلقة.

وعرفت أوروبا الاستبداد في العصور القديمة والوسطى، فقد وقعت المدن اليونانية القديمة، ما يقرب من قرن ونصف، تحت سيطرة الطغاة فيما يسمى «عصر

طغاة الإغريق»، ابتداءً من طاغية «كورنثه» وانتهاءً بطاغية «أثينا» وأبنائه.. لكنها كانت فترة وانتهت.

وعانت أوروبا أيضًا من جرائم الكنيسة في القرون الوسطى من دعم للاستبداد ومن إقامة الدولة الدينية، ومن تأسيس لنظرية الحق الإلهي، والحكم «الثيوقراطي».

لكن هذه الأنواع من الاستبداد في أوروبا تم إنهاؤها تمامًا، أما في فارس والصين فتم محاصرتها والحد منها، وهو ما سمح بانطلاق هذه البلاد إلى النهضة الحديثة في ثقة واطمئنان.

لكن يبدو أن ثقافة الاستبداد لدى المصريين كانت أكثر تجذرًا، فقد كان الحاكم في مصر القديمة إلهًا، ولم تكن هذه الألوهية رمزية أو مجازية تشير فقط إلى سلطته المطلقة، بل هي تعبر حقيقة عن عقيدة كانت إحدى السمات التي تميزت بها مصر الفرعونية وهي عقيدة تميزت على مر السنين، لكنها لم تفقد شيئًا من قدرتها وتأثيرها.

فالملك هو الإله «حورس» أو الإله «الصقر» وهو أحيانًا إله الشمس «رع»، ويصبح «حورس» تابعًا له، ويصبح الإله في هذه الحالة «حورس- رع»، أو يصبح فيما بعد «ابن الإله رع».

وهو في جميع هذه الحالات إله بين الآلهة، وتتجسد فيه مصر، ويمثلها في مجمع الآلهة، وهو من ناحية أخرى الوسيط الرسمي الوحيد بين الشعب والآلهة، والكاهن الأوحد المعترف به للآلهة كلها.

وكثيرًا ما يقال: إن الإله «رع» هو الذي نصّب ابنه ملكًا على أرض مصر. ولهذا اتخذ فرعون منذ المملكة القديمة لقبًا هو «ابن رع». فهو الابن الجسدي الذي جاء من صلب إله الشمس «رع»[1].

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية .. دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، عالم المعرفة، مارس ١٩٩٤م.

ولهذا كله فإن الملك في مصر يتسم بالسمات الآتية:

١- شخصية إلهية مقدسة، ولذلك فهو أقدس من أن يخاطبه أحد مباشرة، فمن كان بشرًا عاديًا فهو لا يستطيع أن يتكلم مع الملك وإنما يمكنه أن يتحدث في حضرة الملك، بل إن كل ما هو جزء من شخص الملك، كظله مثلاً، مقدس لا يقوى البشر على الدنو منه.

٢- يتمتع بعلم إلهي فلا تخفى عليه خافية، فهو «توت» إله الحكمة في كل شيء، وما من معرفة إلا وقد أحاط بها.

٣- كل ما يتفوه به يجب أن ينفذ، لأن مشيئته وإرادته هي القانون، ولها ما لعقيدة الدينية من قوة وشكيمة، فهو يعمل ما يجب أن يعمل، ولا يرتكب إثمًا قط، أو ما يثير بغضًا أو حقدًا، ولهذا فإنه لا يسع المواطن المصري العادي إلا التسليم والخضوع لأوامره ونواهيه.

٤- لما سبق، لم تكن هناك قواعد قانونية مكتوبة أو مفصلة، إذ لم تكن هناك حاجة إليها ما دامت كلها متمثلة في شخص الإله الذي كان دائمًا على استعداد لإصدار الأوامر اللازمة لما يجب أن تكون عليه نظم الدولة وطرق التعامل فيها.

٥- الملك هو همزة الوصل بين الناس والآلهة، فهو الكاهن الأكبر، وهو الذي يعين الكهنة لمساعدته، ولذلك فهو وحده الذي يستطيع تفسير ما تريده «ماعت» إله العدالة.

٦- خلاصة ذلك كله، أن «فرعون» مصر كان هو المشرع والمنفذ، وهو الذي يحكم القضاء باسمه، وهو الذي يعرف رغبات الآلهة ويحققها[1].

وربما كان لهذه الخلفيات الثقافية التاريخية أثر على البناء الثقافي للمصريين تجاه الحاكم، فعطلهم أكثر من غيرهم في تطور ثقافي وفكري مضاد يحجّم سلطة الحاكم

(١) المرجع السابق.

ويحدُّ منها، مثلما نجحت كثير من الدول في فرض ذلك.

لكن ماذا عن البناء الثقافي للمستبد ذاته، إننا نجد بالاستقصاء التاريخي أن الغالبية العظمى للحكام المستبدين يعانون من ضعف ثقافي وهزال فكري شديد، ناهيك عن افتقادهم الكامل للتفكير الاستراتيجي.

غالبية الحكام العرب المستبدين، إما رقباء في جيوش بلادهم دون أية خلفية ثقافية، أو ضباط في هذه الجيوش بمعلومات ثقافية قشرية، لا تسمن ولا تغني من جوع، وهذا الخواء يتبدى في سياساتهم وقراراتهم، ويظهر في أحاديثهم إذا كانت مباشرة وغير مكتوبة.

ونتيجة لهذا الهزال الثقافي والفكري والاستراتيجي الكبير، والذي انعكس على مجريات الأمور في بلادنا العربية، أصبح واقع الحال في هذه البلاد كارثيًّا، فلم يتطور البناء السياسي بل ازداد تدهورًا، ولم يتحسن الأداء الاقتصادي والتنموي بل ازداد تراجعًا وعم الفقر، ولم نتمكن في التصدي للمشروع الصهيوني لكنه ازداد شراسة وتوغلاً.

وأصبحت نظمنا السياسية مجمعًا للمتناقضات الغريبة، التي ساهمت في إنتاج الفوضى السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، فالنظم المحسوبة على المدرسة الاشتراكية لا هي اشتراكية ولا ليبرالية ولا بينهما، والنظم المحسوبة على المدرسة الإسلامية لا هي إسلامية ولا ليبرالية ولا اشتراكية، و النظم المحسوبة على الليبرالية لا هي ليبرالية ولا إسلامية ولا اشتراكية.

فهذه النظم السياسية الفاشلة بزعمائها المستبدين، تكون مع الإسلام عندما يكون الإسلام واقيًا لها من الانهيار والسقوط، وتكون مع الليبرالية عندما تكون الليبرالية حامية لها من السقوط، وتكون مع المدارس الأخرى عندما تحميها من التآكل.

والعلاقة بين المستبد السياسي والفكر هي علاقة زواج متعة تنتهي بانتهاء الأجل المتفق عليه بين الزوج وزوجته المؤقتة، و يكون الزوج بذلك قد حقق لذته الحيوانية دون أن يكترث بمصير الزوجة المسكينة، خاصة إذا نتج عن هذا الزواج حملاً.

وهذا ما يفسّر افتقاد الحاكم العربي المستبد لأي لون أو صبغة أو توجه أو فكر واضح، فهو متداخل يصعب على الباحث أن يجد أطراف معادلته، لأنّه لا يوجد لمثل هذا اللون معادلة بالأساس[1].

وإذا كنا قد ركزنا على استبداد الحاكم، فإننا يجب أن نعترف بالاستبداد كمنظومة احتماعية ممسكة بمفاصل مجتمعاتنا بالكامل، فالاستبداد موجود وممسك بأطراف المجتمع ويصول ويجول عبر أزقته الضيقة ودهاليزه، فكان استبداد رب الأسرة، و ستبداد صاحب العمل، واستبداد السيد.

الرجل يستبد على زوجته، وبدأت الزوجات بضرب الأزواج وقتلهم وتقطيعهم وتعبئتهم في أكياس، والوالد مستبد على أبنائه، وفي الشأن العام يحاضر بعضهم عن حقوق الإنسان من حرية كلمة ورأي وهو في بيته يمنع الكلمة ولا يقبل رأيًا من أحد.

المسألة معقدة ولا شك ولكنها درجات ومستويات، ويخيل إلينا أن جانب الاستبداد الرجالي هو الحالة الطاغية والمهيمنة، حينما يستبد الرجل في بيته ويجعل من ذكورته أداة وحجة في العلو والتكبر، وحينما يجعل من قوامته آلية لاستضعاف امرأة والحيلولة دون مشاركتها في أطر الاستخلاف التي نادى بها دينها، فكانت عقلية الراعي والرعية التي استعملها الحاكم سلبًا لنزع ثوب المواطنة عن شعبه، متمثلة في البيت الأسري عبر رب أسرة نسي قيم المساكنة والمشاركة والنفس الواحدة، إلى فهم عقيم لمسؤولية الراعي تجاه رعيته، فتضخمت الأنا وهيمنت

(١) يحيى أبو زكريا، أفول الطغاة، كتاب متاح على الإنترنت بصيغة «وورد» بدون ذكر دار نشر.

القوامة وأضحت الأسرة عرجاء لتعطي مجتمعًا أعرج.

واستبد صاحب العمل وضاعت حقوق الناس، ودخلت الرشى والمحسوبية وظلم الأجير، وتقطرت جبينه عرقًا دون الحصول على كامل مستحقاته.

واستبداد الأستاذ بتلاميذه مشهور ومعروف في بلادنا، لدرجة أن محاضرًا في إحدى الجامعات العربية، وهو المربي وحامل رسالة الوعي والثقافة والتحضر، لم يترك صنفًا من البهائم إلا نادى به طلبته.

واستبد السيد بعبده ووجد مسندًا فقهيًّا في تلازم الإسلام مع الاستعباد وهو منه براء، فما خلا كتاب فقه من باب في علاقة العبد بسيده، وكأنه باب طبيعي ثابت ثبوت الحضانة والرضاعة والصلاة. وضاعت القيم والقوانين في ظل فتاوى مهزوزة وفهم غير سليم للدين وروحه[1].

لكن هل المنطلق لهذا الاستبداد المتمكن في أوصالنا والذي نلمسه في كل حركة من ذواتنا، كان خيمة السلطان حقًّا التي أفاضت على من حولها بعد أن مُلئت استبدادًا وجورًا، فانطلقت هذه الثنائية القاتلة وراء الأسوار ودخلت البيوت والأسواق وأصبح الجميع مستبدًّا في بيته الصغير وفي إطاره الذي يحمله، أيًّا كان هذا الإطار... فالكل يريد اتباع خطوات السلطان حتى وإن كان يسكن كوخًا من قصب ولا يحمل تحت سلطانه غير كائن مكسور الجناح... فظلم الأول رعيته، وشابهه الثاني فظلم أهله وأسرته، وعانده الثالث فظلم عامله أو عاملته، وظلم الآخر تلاميذه وطلبته.

أم أن المنطلق هي ذواتنا التي حملت «جينات» الاستبداد التي كسبناها بوعي منا لما قرأنا تاريخنا ومقدسنا قراءات مغشوشة بمقاربات مزيفة أو مسقطة، أو عبر نظارات ضبابية تحمل ألوان الغير أكثر من ألواننا؟ فكان الاستبداد قهوة الصباح

(١) خالد الطراولي، في بيتنا مستبد، الجزيرة نت، ٢٧-٤-٢٠١٠م.

والمساء، نعيشه في لحاف الليل و أطراف النهار، نحمله معنا في السوق، نصطحبه في الطريق، ندخل به المدرسة أو المصنع أو المزرعة ونجعله الرفيق والصاحب والدليل! وكما تكونوا يولى عليكم، ومن استبداد الكوخ ظهر استبداد القصر، ومن غبة الفرد الزوج ظهر استبداد الفرد الحاكم، ومن ظلم المحكوم واستبداده تجاه محكوم آخر، ظهر ظلم الحاكم واستبداده على الجميع.

إن ثقافة الاستبداد تشكل عقلية تولد ولا شك مجتمع الاستبداد وحاكمًا مستبدًّا، فمن رحم هذه العقلية نشأ المستبد وترعرع وإن تدخلت على الخط أطراف جديدة دخلية وخارجية، نفسية وجماعية، ولا شك أن أسرة الشورى ومجتمع الديمقراطية يولدان ثقافة الشورى والمواطن الديمقراطي والحاكم العادل، بشرط وجود المؤسسة الحامية والقوانين المحددة التي تكبح الزيغ والانحراف مهما علت أصوات المغالين والمتزلفين.

لكن في المقابل فإن الحاكم المستبد وهو يتبختر في عليائه ويتجاوز دستوره إن وجد وقوانينه، ويركض في إطار مفرغ من أي التزام أو مطالب، يمثل نموذجًا وقدوة سيئة لعقليات مستضعفة ومواطنة مغشوشة:

وإذا كان رب البيت للطبل ضاربًا فلا تلم الصبيان فيه على الرقص

فيقع المحظور وتنشأ أو تتجذر ثقافة وعقلية الاستبداد لدى الخاصة والعامة من الناس. ويزداد الطين بلة إذا تحصنت هذه الثقافة ولقيت دعمها من فقه مبتور وعلم مغشوش وحواشي كتب صفراء واهية ومن فقهاء الحاشية والولائم الخاصة.

إن القراءتين تتوازيان ولا شك، بين حاكم جائر قد ولدته ثقافة قومه، وبين شعوب اغترفت من استبداد سلطانها واستبدت بغيرها، وحتى لا نبقى حيارى ونقع في لغز أسبقية البيضة على الدجاجة أم العكس ونقع في المحظور من زيف الكلام وترفه، فالاستبداد حالنا الذي نراه في كل همسة ولمسة سواء كانت أعاصيره

تخرج من فوهة الكوخ أو نافذة القصر، والاستبداد مرض الشرق بلا منازع، منه انطلق السقوط الحضاري وعبر بوابته نالنا ما نالنا من تخلف واستعمار[1].

إن الاستبداد من أخطر الأمراض الاجتماعية التي تتمدد وتتفشى داخل المجتمع الإسلامي والعربي؛ حيث تنعدم كوابح صد هذا المرض وتترك له الفرصة لكي يسيطر ويهيمن على الحياة، وأخطر أنواع الاستبداد هو الاستبداد الديني، والاستئثار بالقول الشرعي.

وتتجلى مظاهر الاستبداد الديني واضحة في رفض الآخر، وهو ما تمارسه بعض الفرق الإسلامية؛ حيث لا يسمح في منطقة يغلب عليها الصوفية بانتشار السلفية، وفي منطقة السلفية لا مجال لتقبل الصوفية، والأشعرية لا يقبلون السلفية ولا الصوفية وهكذا.. ينفر الجميع من الجميع.

والسبب في ظهور الاستبداد الديني يرجع إلى شيوع ثقافة الاستبداد، لا سيما السياسي منه، ونجاح بعض الحكام في نقل هذه الثقافة إلى عدد من العلماء عبر استخدام وسائل الترغيب والترهيب والوقيعة بين العلماء وبعضهم.

ولا يستقيم أن نخلط بين طاعة ولي الأمر وبين الاستبداد والاستسلام، فطاعة ولي الأمر مطلوبة، لكنها طاعة فيما لا معصية فيه، فإن خرج عن المؤمنين وعن طاعة الله فلا طاعة لولي الأمر في هذه الحالة.

لا بد أن ندرب أمتنا على حرية التعبير والتغيير السلمي وأن يواجه علماء الأمة الحكام الطغاة دون أن يُزج بهم في المعتقلات؛ فـ «لا بد أن تعرف الأمة حقوقها، وأن تجاهد ضد الظلم، وأن أفضل الجهاد كلمة الحق عند سلطان جائر».

إن الأمة في حال قوتها لم يستطع أحد أن يستبد بها، لكن لما دخلت في مرحلة الضعف تسربت لها عدوى الاستبداد، وبدأ المرض يتفشى في جسمها، فبدأ يؤثر

(١) المرجع السابق.

هذا على علمائها ومشايخها ويُدخل عليهم نوعًا من الكهنوت والرياسة المقدسة والاستبداد؛ ما أدى إلى أن أصبح الناس لا يفكرون بعقولهم لا في الجانب العقدي ولا السلوكي، فحين كانت أمتنا أمة إسلامية متماسكة وتسير على الصراط المستقيم؛ لم يكن باستطاعة أحد أن يستبد باسم الدين، أو يدعي العصمة[1].

لكننا في هذا السياق نعتبر أن الإطار الثقافي الذي قامت عليه ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م هو الحل، فقد تمرد الشباب على كل التراث الذي يدعم استبداد الحاكم الفرد، وأثبتوا أنهم يحملون أرقى ثقافة موجودة في العالم، فعن طريق الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي أقاموا شبكة من العلاقات فيما بينهم، وخدعوا أجهزة الأمن، وامتلكوا تصميمًا وإرادة أذهلت العالم، كما امتلكوا صبرًا ونفسًا طويلاً كان طريقهم للنجاح.

أسقطت ثورة ٢٥ يناير مقولة تأليه الفرعون وأزالت عنه قداسته، وأصبح التحدي الآن أمام أوضاع ما بعد الثورة أن يتم تعميم هذه الثقافة في عقول وقلوب المصريين، عبر مؤسسات المجتمع المختلفة، حتى يضيع تمامًا أي تأثير لثقافة التأليه السابقة.

عالم الأفكار فيما بعد ثورة ٢٥ يناير سيكون مختلفًا ومغايرًا تمامًا لعالم الأفكار قبل ذلك التاريخ، لكن الأهم هو أن يتم تطوير هذه الحالة الثقافية وعدم السماح بأي شكل من الأشكال لظهور الأفكار المريضة والثقافة المغشوشة التي تصنع الاستبداد وتساعد على نموه.

---

(١) د. يوسف القرضاوي، الاستبداد الديني أخطر أنواع الاستبداد، موقع د. القرضاوي، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٩م.

الفصل الثالث

آليات المستبد

الحاكم الذي لديه ضمير ورؤية ومشروع وطني وثقافة وتأهيل سياسي وإداري ووعي بالفكر السياسي وبالثقافة السياسية، هذا الحاكم يدرك ما عليه أن يفعله تجاه شعبه ومواطنيه، وغالبًا ما يخرج مثل هذا الحاكم المنضبط من شعب يتمتع بقوة الإرادة والوعي والتعليم المرتفع، ولذلك فهو لا ينتهج الاستبداد منهجًا للحكم، فلو فعل لخرجت عليه الجماهير لينتهي الأمر بسقوطه.

أما الحاكم الذي يجد نفسه وسط غفلة من الجميع على رأس شعبه الخائف المتردد الذي تنخفض لديه نسبة التعليم، فإنه يعلم من داخله أنه لا يستحق أن يكون زعيمًا أو رئيسًا، وأنه لو خاض انتخابات حرة مع منافسين طبيعيين، لخرج خاسرًا من أول جولة، ولذلك فإنه يلجأ إلى تثبيت نفسه ودعم نظامه بمجموعة من الآليات، أهمها:

أولاً: الاعتماد على حاشية وبطانة من المفسدين المستبدين مثله، والذين يحولون كل أجهزة الدولة إلى مصدات في وجه الشعب لحماية الحاكم، ويتحول جهاز الدولة الكبير والمعقد، لا ليحقق المصالح والخدمات للمواطنين، ولكن ليحقق أمن المستبد الطاغية، فتنفق ثروات البلاد على تكوين وتمويل عشرات بل مئات الأجهزة التي تحمي الحاكم وتهيئ له أسباب الراحة والرفاهية والطمأنينة.

ثانيًا: تتحول أجهزة الإعلام في هذا البلد البائس المبتلى إلى أبواق للكذب والتدليس والنفاق، فلا يسمح فيها إلا ما من شأنه كيل المديح للحاكم وإظهار فساده وعمالته على أنها أرقى درجات الوطنية، وفي المقابل يتم وصف من يختلف مع الحاكم والمستبد وبطانته وأجهزته بكل أوصاف السوء، من أجل تشويه سمعته بين الناس وإبعاد الرأي العام عنه.

ثالثًا: تتحول خزينة الدولة إلى منهبة للمحظوظين والمرضي عنهم والمطبلين والمزمرين والراقصين من الكتاب والصحفيين ورجال القانون والأكاديميين ورموز العمل الحزبي والسياسي .. إلخ، فلهم وحدهم الرواتب الكبيرة والمكافآت الضخمة والأرباح السنوية وفرص السفر والعلاج المجاني على نفقة الدولة، ولهم وحدهم الوظائف وفرص الترقي والعمولات والحسابات البنكية والتوكيلات، ولهم وحدهم الصفقات وقطع الأراضي التي تعطى لهم بالمجان تقريبًا أو بأسعار شبه مجانية، أما باقي الشعب فيعاني الفقر وشظف العيش، ومن يقول لهم: لا، تغلق في وجهه الأبواب ويمنع من الحصول على حقوقه العادية.

رابعًا: يعتمد هذا الحاكم المستبد، التزوير والتزييف والخداع، آليات أساسية يدير بها ما يسمى «العملية السياسية»، فالانتخابات التي تتكلف الملايين ما هي إلا مسرحية هزلية لتحقيق ما أراده النظام مسبقًا، والمجالس النيابية أشكال وهياكل جوفاء بلا مضمون ولا قيمة، وهي وجه آخر للتربح والاسترزاق لمجموعة من المسبحين بحمد النظام.

خامسًا: لأن هذا الطاغية المستبد يدرك قيمته الحقيقية وقدره، فإنه يرتعد من التكوينات والقوى الشعبية القادرة على الضغط من أجل التغيير، مثل الأحزاب والنقابات ومكونات المجتمع الأهلي، ولذلك فإنه وأجهزته يحاولون بكل الطرق تدميرها وإضعافها، فإذا استطاعوا إفساد القائمين عليها وشراء ذممهم فعلوا، وإذا لم يستطيعوا فإنهم يلجأون إلى ترزية القوانين للسيطرة عليها بالقوانين سيئة السمعة، فإن لم يستطيعوا فجروها من الداخل بتأليب ضعاف النفوس ورشوتهم، أو تكون الحراسة القضائية حلاً من الحلول.

سادسًا: امتدادًا من كراهية المستبد الديكتاتور لكل من له قاعدة شعبية وقبول لدى الجماهير، لأنه يرى هؤلاء نجحوا في الذي فشل هو فيه، ولأنه يعلم أنه طبقًا

للقواعد السياسية فإن من يفقد التأييد الشعبي والرضا الجماهيري يفقد مشروعيته ويجب عليه الاختفاء والتواري، فإنه يتربص بكل تيار أو قوة تتمتع بالرضا الشعبي ولها قاعدة جماهيرية، فيمنعها بكل الطرق غير القانونية من الاشتراك الحقيقي في المنافسة السياسية، فيحجب عنها حقها في امتلاك أية وسيلة إعلامية، ويصفها بعدم الشرعية، فإذا تقدمت بطلب لتأسيس حزب شرعي رفضه، ويظل في الرفض غير المنطقي بلا مبرر.

سابعًا: يفطن المستبد إلى أهمية القانون في إنصاف المظلومين، ولأنه متيقن من ظلمه للناس ومن استبداده الذي تعاني منه قطاعات واسعة من الشعب، فإنه يلجأ إلى الاحتيال على القوانين الطبيعية التي من شأنها أن تعيد للمظلومين حقوقهم، وهذا الاحتيال يكون عن طريق تدشين ترسانة كاملة من القوانين الاستثنائية المقيدة للحريات. وفي نفس الوقت فإن هذا المستبد الظالم يتعمد تهميش القضاء وإقامة قضاء مواز له يساعده في قمع خصومه، فهو يتحسب من ظهور أي قاض رافض للظلم ومنحاز للمظلومين ومتحمس لتغيير الأوضاع المختلة.

ثامنًا: لأن هذا الحاكم المستبد خائف ترتعد فرائسه، فإنه يحول البلاد إلى ثكنة عسكرية مكتظة بأجهزة الأمن والاستخبارات، فيتوحش جهاز الأمن ويصبح بيده كل مقدرات البلاد من التعيينات ورسم الخطط والبرامج ومراقبة وسائل الإعلام والمحاكم وكل حركة المجتمع، وتصبح أهم وظائف هذا الجهاز المتوحش تطهير المجتمع من أصحاب الأفكار والرؤى و الإستراتيجيات الذين لا يتفقون مع رؤى سيدهم وأفكاره، ويصيغون خارطة سياسية على مقاسه، ويصيغون معارضة سياسية شكلية تعارض النظام الرسمي ظهرًا وتقبض في دجى الليل. وهذا الجهاز المتوحش، لأنه أنشئ على غير تقوى ومصلحة وطنية، فإنه بقدر ما يذل المواطنين ويقهرهم ويقمعهم ويظلمهم، بقدر ما يخون الوطن والأمة عندما يسخر ما لديه من إمكانات في مدّ الولايات المتحدة الأمريكية والكيان الصهيوني والدول الأوروبية

بالمعلومات الطازجة التي لو سخرّت واشنطن ملايين الدولارات من أجل الحصول عليها لما تمكنّت من الحصول على النزر اليسير منها.

تاسعًا: من أبرز آليات الحاكم المستبد الفاسد، أنه يعمل في اتجاه مضاد لمصالح بلاده العليا، فهو يوقع الاتفاقات والمعاهدات مع أعداء أمته ويتعاون معهم طمعًا في حمايتهم لنظامه، لأنه يعلم أن نظامه مكروه وسينقلب عليه شعبه إن آجلاً أو عاجلاً، كما هي سنن التاريخ ونهايات المستبدين.

عاشرًا: يتحول المستبد إلى ممثل مسخرة على مسرح بلاده، فكل كلامه وقراراته يقصد منها الشكل دون الجوهر، يدغدغ مشاعر الناس بالكلام والوعود وتفعل أجهزته عكس ما يقول، يشتري السلاح ويخزنه حتى يصبح خردة في المخازن من أجل إيهام الناس برغبته في حفظ استقلال البلاد، بينما هو يفعل عكس ذلك، وجيشه لا يحارب عدوًّا وإنما تقمع أجهزة أمنه المواطنين بدون رحمة. ولذلك فإن المواطنين في مثل هذا البلد البائس أصبح لديهم مؤشر واحد لمعرفة الحق من الضلال: فما يقوله أركان النظام ووزراؤه ومستشاروه وإعلامه أكاذيب وخداع، والحقيقة والموقف الصحيح هو عكس ذلك.

الفصل الرابع

صناعة المستبد

ذات يوم من عام ١٩٩٠م، وأثناء عودتي من عملي بوسط القاهرة في الطريق إلى شارع الملك فيصل بالجيزة، ركبت حافلة النقل العام، من أمام نقابة الأطباء بشارع القصر العيني لتقلني إلى ميدان الجيزة. كان التوقيت هو ساعة الذروة، تقريبًا الساعة الثانية والنصف بعد الظهر.

كان الزحام شديدًا، ولذلك فإن الحافلة كانت تتحرك ببطء، لدرجة أن المسافة من آخر شارع القصر العيني إلى أول حديقة الأورمان استغرقت حوالي ثلثي الساعة.

وبينما الحافلة في محاذاة مستشفى القصر العيني، حدثت مشادة عالية الوطيس بين اثنين من الركاب في الباب الخلفي نتيجة الضغط والتزاحم الشديد والاحتكاك، وسمعنا تبادل الشتائم بالأب والأم بين الطرفين، ولم يدم هذا العراك طويلاً فسرعان ما توقفت الأصوات المتعاركة، وبدأت الحافلة تقطع كوبري الجامعة رويدًا رويدًا حتى وصلت إلى قرب نهاية الكوبري، ثم «ركنت على اليمين» وتوقفت تمامًا مقابل برج الحراسة الخاص بالسفارة الإسرائيلية.

في البداية اعتقدنا أن توقف الحافلة بسبب الزحام، أو ربما بسبب عطل ميكانيكي، ولكننا سرعان ما تأكدنا أن حافلتنا فقط هي التي توقفت و«ركنت على اليمين». بدأ الناس يتساءلون لمعرفة السبب، لكن لم تكن هناك إجابة، حتى فوجئنا بعدة أفراد، مدنيين ومسلحين من طاقم حراسة السفارة الإسرائيلية يصعدون الحافلة بينما وقف رجل، عرفنا بعد ذلك أنه أحد طرفي العراك الذي حدث في الباب الخلفي، يشير إلى أحد الركاب، أي إلى الطرف الثاني في المشاجرة، وهنا بدأت

الأمور تتضح، فهذا الرجل الواقف أسفل الحافلة هو أحد أفراد حراسة السفارة وقد أبى إلا لينتقم من مواطن آخر احتك به في لحظة زحام وتبادل الشتائم معه، واتضح لاحقًا من كلام الركاب الذين كانوا قريبين من العراك ومتابعين لتفاصيله أن هذا الحاوس في السفارة الإسرائيلية هو الذي بدأ بسب ذلك الشاب بأمه وأن الشاب المسكين ما كان منه إلا أن رد السباب، لكن الأمر لم يعجب هذا المستبد المتغطرس، فقد رأى أن من حقه أن يسب الناس وليس من حق الناس أن يردوا عليه.

انتشر أفراد الحراسة حول الحافلة وداخلها، وتقدم أحدهم للقبض على الراكب المسكين، إلا أن الراكب تشبث بحديد الحافلة وأبى النزول في صمود عجيب، فشلت معه كل محاولات القوم لإنزاله، رغم اللكمات التي يأخذها في صدره وبين جنبيه.

هنا بدأت احتجاجات الركاب على هذا الظلم الفج والتترس خلف دائرة الانتماء الوظيفي، فأحد الركاب يشير إلى المستبد الصغير الذي هو مجرد حارس لسفارة الصهاينة، ويقول له: لقد تابعت المشاجرة وأنت من بدأ بالسباب، فماذا تريد من الرجل؟ هل أنت أفضل منه؟ أم أن أمك أفضل من أمه؟

ثم يأتي صوت راكب في المقعد الخلفي منتقدًا السائق على استجابته لمن طلبوا منه أن يتوقف، فيجيب السائق مكيلاً النقد لهذا الراكب الذي لا يعرف شيئًا.

هنا يأتي صوت سيدة بسيطة ترتدي جلبابًا أسود وطرحة سوداء، مخاطبة هذا المستبد الصغير وزملاءه من بطانة فرعون أعوان الشر والفساد: سوف ينتقم الله منكم على هذا الظلم والجبروت وانعدام الضمير، تستترون وراء وظيفتكم والسلاح الذي في أيديكم كي تعتدوا على رجل رد سبابكم ولم يبدأكم بعدوان؟

في هذا التوقيت بالذات شعرت بأنني، وأنا الصحفي الذي ينبغي أن يكون في المقدمة، لم أتحرك ولم أبدأ المقاومة، فقد سبقني غيري وخاصة هذه السيدة البسيطة.

فأعلنت بصوت مرتفع أنني متضامن مع هذا المظلوم ووضعت يدي في يده وقلت له : إذا أرادوا أن يأخذوك فليأخذوني معك.

ظن أحد الركاب أنني من القوم الظالمين فاستنكر ذلك، فأخبرته بصوت عال بصفتي، وأنني ابنكم وواحد منكم أرفض هذا الظلم وسأكتب عنه في جريدة الشعب المعارضة.

كانت لحظة لا يمكن أن تنسى، بدأ الرجل يعتذر، اقترب مني اثنان بعد أن أخرجت الورقة والقلم وبعد أن بدأت أدون المعلومات، كان أحدهما ضابطًا في القوات المسلحة برتبة مقدم ومعه مرافقه برتبة مساعد، وقالوا : نحن ندعمك في كل ما تكتب وأعطياني أرقام هاتفيهما وعنوانيهما ورقمي بطاقتيهما، وطلبا أن يكونا شاهدين على كل ما أكتبه.

بدأت صيحات الاستحسان تأتي من أماكن متفرقة من الحافلة، وإذا بالسيدة البسيطة التي أعطتني قوة الدفع تدعو لي، وإذا بالتضامن يأتي من كل مكان.

وحينما رأى وسمع وشاهد القوم الظالمون هذا التطور، رأينا الحافلة تتحرك فجأة، فقد جاءتها الأوامر بالانصراف، بعد أن فشلت محاولة الإمساك بهذا الشاب، وبعد أن تكاتف الركاب وبعد أن تكونت نواة للمساندة والدعم والتأييد للمظلوم، وبعد أن تحولت الحافلة من السكون إلى الحركة والرفض وإلى اتخاذ الموقف الإيجابي.

ساعتها أيقنت أن هذا هو حال مصر تمامًا، فالمستبد أراد أن يسخر إمكانات وظيفته ومجاملة زملائه له إلى قهر وإذلال وظلم واحد من الناس، كان يمكن لمخطط الاستبداد والطغيان أن ينتصر، ولكن حدثت أربعة أمور:

الأمر الأول: أن المظلوم اتخذ موقفًا مقاومًا وأبى أن يتنزل ويرافقهم إلى حيث يبطشون به، وقد تقوى بالناس من حوله.

الأمر الثاني: أن الرأي العام كله رافض للظلم الذي حدث ولكنه يخشى من

العواقب، فلم تصدر إلا مواقف رفض بسيطة.

الأمر الثالث: أن المواقف القوية لا تتكون مرة واحدة، وإنما تكون هي محصلة المواقف البسيطة، وأن الناس رافضون من داخلهم ولكنهم في حاجة لمن يقود هذا الرفض بأمانة ونزاهة وعدم انتهازية.

الأمر الرابع: مخطئ من يظن أن المثقفين والنخبة هم قادة الفعل الإيجابي الرافض والمقاوم والمعترض، فقد كانت هذه السيدة هي الأسبق على الإطلاق، ثم تبين بعد ذلك أن بجوارها صحفيّ ومقدم في القوات المسلحة ومحام ومحاسب .. إلخ.

ما نخرج به من هذه الواقعة أن الناس البسطاء هم من بيدهم الفعل الأكبر والأهم، فبسكوتهم ينمو الاستبداد ويكبر ويزدهر ويثمر ثماره الخبيثة، وبحركتهم ورفضهم يموت الاستبداد في مهده وتتحقق إرادتهم وتتحسن أحوالهم.

وإذا أضفنا إلى هذه الواقعة واقعة أخرى لا تقل عنها أهمية في المغزى والدلالة، سيتأكد ما قلناه من أن حركة المواطنين هي أساس نهضتهم وأساس انصلاح أحوالهم وأساس إبعاد الظلم والطغيان والاستبداد عنهم، والعكس هو الصحيح، فبقدر سكوتهم عن الظلم واستكانتهم وسلبيتهم ينالهم كل سوء ويعانون من كل أنواع القهر وفقدان الحقوق ثم الفقر.

كنت في الأردن عام ١٩٨٦م، وأثناء وجودي لاستخراج الهوية (بطاقة الإقامة) حدث مشهد مزلزل، المصريون يقفون في زحام وفي طابور طويل أمام شباك المعاملات لاستخراج هوياتهم، معظمهم من الفلاحين والبسطاء، يقف وسط الطابور المزدحم شاب يرتدى الزي القروي (الجلابية البلدي والطاقية)، والجندي الأردني يشرف على نظام الطابور ويدور حوله، ويبدو أنه استصغر شأن هذا الشاب، فأخذ يصيح فيه ناهرًا، ثم يلكمه بقبضته في جنبه، وكلما دار هذا الجندي المستبد الظالم حول الطابور يتجرأ مرة بصفع الشاب المسكين على وجهه ومرة

أخرى على قفاه، وكان منظرًا مؤلمًا لجميع المصريين الموجودين، الكل يلعن النظام غير الراشد الذي أجبر المصريين على الهجرة ليحدث لهم ذلك.

كان الطابور يتحرك ببطء، والميول العدوانية الاستبدادية الطغيانية تزداد عند هذا الجندي الحقير، فكل مرة يدورها حول الطابور يصفع هذا الشاب الفلاح على وجهه أو قفاه، دون ذنب ارتكبه، والشاب المسكين صابر لا ينطق ببنت شفة مثل الشعب المصري.

وفي لحظة فارقة بين الموت والحياة، بين اليأس والأمل، بين العزة والذل، بين الكرامة والإهانة، استدعى هذا الفلاح المصري الغريب عن وطنه وأهله كل جذوره الحضارية، وانتفض يقاوم الظلم، فطرح الجندي السافل أرضًا وبرك فوقه مثل الجمل حينما يخزّن لصاحبه المعاملة السيئة، وتأتي لحظة الانتقام فيبرك عليه صعودًا وهبوطًا حتى يقتله بلا شفقة ولا رحمة.

يبدو أن هذا الفلاح قد أخرج كل مكنونات الغربة والخوف والفشل والسجن من حساباته تمامًا، لم يعد أمامه شيء إلا الانتقام لشرفه وكرامته، فأخذ يضرب الجندي ضربًا عنيفًا مؤلمًا، وهو راكب فوقه ماسك بخناقه.

عندها اجتمع الجنود والموظفون ليخلصوا الجندي الوضيع، لكن اللافت للنظر أن الضابط المسئول، رغم أنه كان يرى هذه المأساة منذ بدايتها من خلف زجاج النافذة وهو جالس على مكتبه دون أن يمنع استمرارها، يخرج مسرعًا ليقتاد المصري المزمجر.

توقع المصريون الحاضرون أن الضابط سيفتك بالمصري الذي تجرأ وفعل ذلك، لكن كانت المفاجأة أنه أحضر له كوبًا من العصير وطيب خاطره وطلب منه أن يكون حارسًا خاصًا على مزرعته، وهو ما وافق عليه هذا الأسد المصري البسيط.

من يوم أن رأيت هذا المشهد وأنا أؤمن أن بداخل كل مصري رفضًا كاملاً

للظلم والاستبداد، لكنه يحمل كميات من الصبر لا يقدر عليها أحد غيره في العالم، وإذا تم تنويره وتثويره وقيادته بشكل صادق ومحترم، في رحلة طويلة وصبورة لا تيأس، فسوف يكون هو المدد الحقيقي للتغيير الذي يسعى إليه المصريون جميعًا.

نخلص من ذلك إلى أن الشعب هو الأساس وأن حركته هي الأساس وليست حركة المستبد، المستبد الظالم يتخذ مئات وآلاف الخطوات المتمثلة في القرارات والسياسات طيلة فترة حكمه من أجل أن يرسخ استبداده، إلا أن حركة واحدة فقط من الشعب تؤكد رفض هذا المسار الاستبدادي، تفسد كل ما فعله الطاغية المستبد وتصحح الأوضاع وتعيدها إلى طبيعتها.

لكن إذا سيطر الخوف على الشعب، وآثر السلامة وهي ليست بالسلامة أبدًا، ورضي بأن يهان ويعتقل ويذل، وقبل بأن تنهب ثرواته وتوزع على المحاسيب المفسدين ويحرم هو منها، فإنه بذلك يدعم المستبد ويضفي على استبداده الشرعية، ليستمر سنوات طويلة في فساده وقمعه وظلمه.

وبعد دور الشعب السلبي في تدعيم الاستبداد وأهله، يأتي دور الحاشية، الذين هم صنّاعٌ مجهولون في غالب الأحيان، جنود شبحيون لا يظهرون في المشهد السياسي والاجتماعي، إلا لضرورات تجميلية تقتضيها الحاجة الشخصية، والحاشية هنا تتخذ أسماء متعددة، ولهم وظائف مختلفة، فهم الأقربون للطاغية والمقربون له والمتطوعون لخدمته وماسحو الأكتاف ومدبجو الخطب الرنانة ومروجو الشائعات الرئاسية، وهم الطبقة التي تصنع الطاغية وتقوّي من شكيمته، وتدله على دروب الخطأ والجبروت والعنف والقسوة، وتعلمه التشبث بالسلطة عبر القتل والسجن والتخويف وزرع الرعب في المجتمع والبطش بالمعارضين والاغتيالات السياسية والتفرد بالقرارات، وما إلى ذلك من مفردات كثيرة عاشتها الشعوب وذاقت منها الويلات والمآسي.

الحاشية يشكلون حول الطاغية شبكة أخطبوطية صعبة الاختراق، تمهيدًا لعزله عن المجتمع، كي يبقوا هم العيون التي ترصد له ما تريد لا كما يريد هو، بعملية تدجينية صعبة ومعقدة تستغرق سنوات طويلة، لتصل إلى نتيجة مريحة بعزل الطاغية عن الآخرين وحبسه في قصوره وتعويده على الممارسات الدموية والعنيفة التي من شأنها أن تبقيه أطول زمن، وتبقي الحاشية معه إلى آماد طويلة كما هو واضح من سياقات التجارب العالمية في شتى تسمياتها السياسية والعسكرية.

هذا ليس إقرارًا بأن الطاغية بريء وأن الحاشية هي مَن «تجنّده» ليكون دمويًّا وعنيفًا، فالقصد هنا وجود استعداد نفسي عالٍ للجريمة وحب الذات، غير أن الحاشية تقوم بأدوار متعددة من المديح والنفاق وتعظيم شأنه وتوطين ثقافة الكُره في داخله، ومن ثم الاستحواذ على مزاجه وتهيئته نفسيًّا لأن يكون عنصرًا مضادًّا للمجتمع والوطن والمواطنين، كما هي الحال مع الروماني شاوشيسكو ونيرون وكاليكولا والجنرال فرانكو والكوبي باتيستا، وإلى زمان أبعد هناك فرعون وقصته المعروفة، والنمرود بن كنعان الذي أوصلته حاشيته إلى مرتبة الإلوهية وكان ينادي بعبادته من دون الله تعالى.

والحاشية لا تقتصر على الضباط والوزراء والمستشارين ورجال القانون وغيرهم، الذين يشكلون عصب نظام الاستبداد، وإنما تضم أيضًا نخبة المثقفين الذين يشاركون في صناعة الطغيان، ويساهمون في تدعيم آليات الغطرسة والكبرياء الكاذب في عقله الصدئ.

فقسم من هذه النخبة يجعل أحد هؤلاء الطغاة المستبدين حارسًا للبوابة الشرقية للأمة العربية، وقسم ينصب مستبدًّا آخر على سارية الحلم العربي، وقسم يدبج المقالات والأشعار والمدائح في مستبد ثالث، وقسم يصنع التماثيل لمستبد رابع .. إلخ، في الوقت الذي تدرك فيه هذه النخبة الثقافية الفاسدة أن هؤلاء المستبدين يكذبون على شعوبهم ويزورون الوقائع والأحداث والتاريخ ويرتكبون كل أنواع

الجرائم في حق شعوبهم.

وكم من الجرائم ارتكبها المثقفون وهم يتوافدون على مهرجانات الطغاة، ومجلاتهم وجرائدهم، ويستبدلون بخبز مأساتنا الإقامة في فنادق الدكتاتوريات، يحيون ليالي الكذب ويكتبون بالزيف تاريخ مجد خائب، لرجال جل بطولتهم في تضييع أمتهم، وقادة أفذاذ لا يشق لهم غبار في الفرار من مواجهة المعركة الحقيقية، ولا يفلحون - إلا في الانقضاض في براعة وبجاحة يحسدون عليها على الآمنين البسطاء من شعوبهم.

إن الذين يحصلون على جوائز الدكتاتور ويقيمون في قصوره، يبحثون دائمًا، إذا ما سقط الدكتاتور عن ممول بديل، وبالتأكيد، يحفرون للعثور على طاغية جديد.